



أثبتت تجربتا تونس 2012 والسودان 2019 أن المخرج السلمي الوحيد للأزمة السياسية التي دشنها ثورات الشعوب العربية هو التفاهم بين جزء من النخب الحاكمة، التي تحكم بالدولة ومؤسساتها وأجهزتها، والقوى السياسية والمدنية الممثلة للمجتمع، على صيغة للخروج من المواجهة، والاتفاق على مرحلة انتقالية هدفها الرئيس قيادة البلاد نحو انتخابات حرة ونزيهة، يختار الشعب بمقتضاه ممثليه الشرعيين، ومن ثم تدشين حياة ديمقراطية سليمة تحسم قضية تداول السلطة، وتضمن الاستقرار السياسي، وتوجه طاقات المجتمع نحو الإنتاج والإبداع والتقدم المادي والعلمي والثقافي. وهذا ما أطلق عليه اسم طريق الحل السياسي للتحدي التاريخي الذي فتحته دورة الانتفاضات الشعبية في منطقة عربية تأخرت عقوداً عن ركب التقدم المدني والحضاري العالمي.

وفي المقابل، في جميع الحالات التي أخفقت فيها الشعوب في سلوك هذا الطريق، وفشلت في فتح الحوار بين الأطراف الرسمية والشعبية، للبحث عن حل وسط تلقي فيه إرادة الجمهور الثائر ومصالح الحفاظ على الدولة والنظام العام، وبالتالي على البنية المؤسسية والأجهزة البيروقراطية والعسكرية والأمنية الرئيسية للدولة، كانت النتيجة مأساوية، تراوحت بين ثلاث حالات جميعها كارثية. **الأولى**، الليبية التي انهارت فيها الدولة تماماً، وتفككت وأصبحت البلاد فريسة للصراع بين مجموعات مسلحة لكل منها مشروعه الخاص، وهي تعمل أكثر من ذلك تحت وصاية الدول الأجنبية وبمساعدتها. وهذا هو الوضع أيضاً في اليمن الذي يتباطط في حرب داخلية وإقليمية، لا أفق واضح للخروج منها بعد. **الثانية**، الحالة المصرية التي ما إن أدت فيها أول انتخابات نظمانية إلى نجاح ممثل المعارضة في الانتخابات الرئاسية، حتى ارتدت النخب الحاكمة، التي خشيست على مصيرها ومصالحها، على أعقابها، واختارت الانقلاب على الديمقراطية، بذرية مقاومة خطر سيطرة

القوى الإسلامية. وكان من الطبيعي أن تؤسس هذه النخب التي غدرت بالتزاماتها تجاه الشعب والقضية الديمقراطية حكماً سلطانياً أكثر تطرفاً من سابقه. إذ لم تعد تكتفي باستعادة السيطرة بالقوة وتشديد القبضة الأمنية على المجتمع، وإنما تهدف، وبعد من ذلك، إلى القضاء على إرث الثورة، واجتثاث أفكارها وتنظيماتها ونخبها من الجذور، حتى أصبح حكم الرئيس السابق حسني مبارك يبدو أمام النظام الجديد "ديمقراطياً"، على الرغم من فساده المدوّي.

**الحالة الثالثة**، هي الأسوأ، وهي السورية التي حافظ فيها النظام، بفضل الدعم غير المشروط لحلفائه الدوليين، على تماسته ووحدة أجهزته ونخبته القائدة أمام الانتفاضة الشعبية، وصمم، منذ البداية، على رفض أي مقاربة سياسية، وقطع دابر ما أطلق عليها اسم المؤامرة الكونية على البلاد، والإصرار على الانتصار العسكري، مع شعار لا يمكن أن يكون أكثر وضوها وتعبيراً: الأسد أو نحرق البلد. وكانت النتيجة، بدل الانتقال السياسي الذي كان يحلم به الجمهور المتطلع إلى التغيير نحو حكم ديمقراطي، يضمن احترام القانون وحقوق الأفراد وحرياتهم، ويحافظ، في الوقت نفسه، على مؤسسات الدولة، وبالتالي على أطراها الرئيسية وبنياتها الأساسية، شرعت أبواب البلد للتدخلات الأجنبية، وصارت مسرحاً تفرغ فيه هذه الدول نزاعاتها، وتدرّب فيه جيوشها وتجرب أسلحتها. وفيما وراء استمرار النظام وتعزيز أجهزته الأمنية لم يحصل تفكك الدولة، وتقويض مؤسساتها السياسية والاقتصادية وسلطتها السيادية لصالح زعماء المليشيات المحلية والأجنبية، الأهلية والرسمية، فحسب، وإنما تفكّك المجتمع أيضاً، ولم يعد للسوريين هوية جامعة، ولا مشروع مشترك، ولا إطار يوحد جهودهم، أو يعكس إرادتهم السياسية. تحولت سوريا بعد سنوات قليلة من الحروب المتقاطعة إلى مسرح للصراعات الإقليمية والدولية، وقد فيها السوريون أي موقع يسمح لهم بالمشاركة في تقرير مصيرهم، بل أكثر من ذلك، فقد السوريون أنفسهم البوصلة الوطنية، فصار كل فريق، بل كل فرد، يبحث لنفسه عن مخرج وموطن بديل وموقع يضمن له المحافظة على البقاء والعيش في أي شروط ممكنة، فصار نصف شعبها لاجئاً من دون حقوق في أرضه، ونصفه الآخر نزيل المخيمات، أو تحت ظلال أشجار الزيتون المدفوعة الثمن.

أمام تلاعبات الدول المختلفة بمصيرهم، وفشل المنظمات الدولية السياسية والإنسانية في تقديم المساعدة في أي مستوى أو ميدان لمساعدتهم على استعادة قرارهم في وطنهم، ونتيجة هشاشة مؤسساتهم المدنية، وخبراتهم التنظيمية والسياسية، إن لم نقل انعدامها، يعيش السوريون اليوم حالةً من الضياع الفكري والسياسي والاجتماعي معاً، فيبعد أن فقدوا المبادرة، وأصبح أعداؤهم هم المتحكمين بسير العمليات العسكرية والبلوماسية، لم يبق لهم سوى رد الفعل، ولم يعد أكثرهم يرى مخرجاً قريباً من دون التعليق بأذنيال هذه الدولة الأجنبية أو تلك. ولم يعد بمقدمة قادتهم، أو من هم في حكمهم، معرفة أين يتوجهون، ولا كيف يستطيعون تنظيم أنفسهم، وتشكيل قوى سياسية تجمع جهودهم، ولا الوسيلة لتحقيق الحد الأدنى من التفاهم على أي مبادرة سياسية أو عسكرية. وعلى الرغم من أن سياسييهم ومثقفيهم، أو القسم المنخرط في الصراع من بينهم، لا يكفون عن التذكير بضرورة تطبيق قرارات الأمم المتحدة، ويعلنون تمسكهم بالحل السياسي بمقتضى هذه القرارات، إلا أنهم لا يزالون عاجزين عن تنظيم أي جهد جماعي فعال لدفع المجتمع الدولي إلى التخلّي عن استقالته السياسية، والسير في هذا الطريق. وحصيلة ذلك كله أن قسماً كبيراً من نخب المعارضة التي لا تزال منخرطة في الصراع لا ترى أن لديها خياراً آخر سوى انتظار ما يمكن أن يسفر عنه صراع الدول المتنازعة على تقاسم النفوذ في الأرض السورية أو تفاهمتها ، في أستانة أو واشنطن أو جنيف، عليه يفتح بعض الآفاق المسدودة تماماً اليوم. ويكرّس القسم الآخر من المعارضة جهده من أجل الخروج من الفوضى والتشتت الضارب في البحث عن قيادة افتقدت إليها الثورة خلال ثمان سنوات، أو بالأحرى على تحصيل التوافق على اسم قائد/ زعيم ملخص لأهداف الثورة ومجسد لإرادة جمهورها، يمكن أن يجمع عليه المعارضون، يتحدى

مشاريع قوى الاحتلال الأجنبية، ويجسد روح السيادة السورية المنتهكة في مواجهة روح التبعية والاستسلام السائد في مؤسسات المعارضة الحالية. أما القسم الثالث فهو المتعلق بحال الغيب، بالمعنى الحرفي للكلمة، ممن يتضرع إلى الله صبح مساءً، ليضرب بإرادته التي لا ترد الظالمين بالظالمين، ويخرج من بينهم أنصاره سالمين. بينما غسل القسم الرابع يده تماماً من الثورة وشعاراتها، وسلم بأن سوريا انتهت، وليس لها أي أمل في الخلاص، لا اليوم ولا غداً، ولم يترك له الإحباط والشعور الحارق بالهزيمة سوى تسويق صفحة نشطائها، والشماتة برجالتها. هكذا يحول الخوف من الخسارة حياة السوريين المنخرطين في الثورة وأنصارها إلى جحيم، يسرّعه تبادل الاتهامات والاتهامات المضادة، ويصبّون جام غضبهم واحدهم على الآخر، ويتنازعون في ما بينهم جرعة الأمل الضئيلة المتبقية. يكاد بأسمهم على بعضهم يكون أشدّ من بأسمهم على عدوهم الذي أسلم قياده لحماته، واطمأن إلى البقاء في ظل الاحتلال.

## (2)

والحال، لن يخرج من المداولات الدولية أي حلٍ يحقق الحد الأدنى من تطلعات الشعب الذي ما يزال يضحي منذ ما يقارب العقد من السنوات من دون حساب. لن يقبل الروس أي حلٍ تفاوضي يفضي إلى فتح ثغرة تهدد بقاء نظام الاستبداد والقمع الشمولي القائم، وتحمل إمكانية خروج سوريا والسوريين عن السيطرة. وسوف تستمر موسكو في قضم الواقع التي تحتلها المعارضة، بتطبيق سياسة الأرض المحروقة، لفرض إرادتها وإجبار السوريين على القبول بتأهيل النظام القائم، بوجود الأسد أو من دونه. ولن يتجاوز المجتمع الدولي والغرب الديمقراطي في موقفه من موسكو سقف العقوبات والضغوط الاقتصادية والدبلوماسية، كما أعاد تذكيرنا بذلك منذ أيام (الشرق الأوسط 22/8/2019) المبعوث الأميركي لشؤون الشرق الأوسط، جيمس جيفري، في حديثه أخيراً للصحافة. وأكثر ما يمكن توقعه من هذا المسار السياسي الذي لم يعد يعرف رأسه من ذنبه هو قيادة البلاد نحو ما تسمى "انتخابات نزيهة" تحت إشراف الأمم المتحدة، لن ينتج عنها سوى التجديد الكاريكاتوري لشرعية الأسد وسلطته الزائفة. كما أن مساعي آخرين لاختيار قائد للثورة من خلال تصويت مماثل ومجموعات التواصل الاجتماعي لن ينجح في التوافق على اسم، وإذا نجح فلن يحل مشكلة القيادة، وإنما سوف يعقدها، أكثر لأن غيابها لم يرتبط بالافتقار لشخصيات وأسماء مخلصة وبازة، ولكن لأنعدام الرأي الموحد والرؤية المشتركة ووضوح الأهداف. وبالتالي غياب الأجندة الواحدة أو الجامعة عند جمهور الثوار والمعارضة أنفسهم. ومن المستبعد أن يشملنا الله برحمته، ويؤيدنا بجندٍ من عنده لا نراها، بينما نحن على ما نحن عليه من التناقض، بل الكراهية المتبادلة التي يغذيها في ما بيننا عجزنا عن استيعاب اختلافنا وتجاوزها، ومن الجحود الذي يطبع علاقتنا، فيجعل الواحد منا لا يرى في أخيه صديقاً أو شريكاً، ولكن منافساً أو عدواً أو مرتدًا عن العقيدة، ينبغي تجريده من أي صفاتٍ أو قيم إيجابية، وإذا أمكن تحبيده، ورفض الاعتراف بدوره وأهليته مهما كانت. وهذا ما يجعل من المراجعات الشكلية الجارية مناسبةً للكشف عن العيوب والمثالب الشخصية، وتوزيع الاتهامات وتعيم جو من الريبة وعدم الثقة والتشكك المتبادل عند أغلبيةٍ من جمهور الثورة وأنصارها.

هكذا لم يتتطور وضع المعارضة، ولا وضع النظام أو ما تبقى من عوارضه، منذ التدخل الروسي عام 2015، حين بدأ تحديد المعارضة بالقوة العسكرية المفرطة، والتحايل على المقاتلين باسم المصالحات، والتبيشير بالحل السياسي الروسي، بينما فرض على العصابة الحاكمة الانصياع لإرادة سلطة الانتداب الروسي الجديدة ومخططاتها، والعمل على استراتيجيةتها. من هنا، يجد السوريون أنفسهماليوم، معارضين وموالين، معلقين في الفراغ، أو بالأحرى في حالة انعدام الوزن، مجردين من أي إرادة وقرار، لا يملكون من أمرهم شيئاً. فمن جهة أولى، انتهى النظام القديم، ولم يعد بالإمكان إعادة تأهيله، وأنهارت معه قواعد عمله وقيمته وتقاليده، ولم يبق لدولة الأسد إلا هيبيتها الجديدة ورقة توت تخفي عورة السلطة الأجنبية المحتلة، فقد

تحطمـت كما تحطمـ سفينة ضلـت طريقـها، وارتـطمـت بالصخـور، بسبـب حماقة قبطـانـها الذي اختـار أن يكون ماسـح أحـذـية لـدى السـيد المـحتـل على أن يـرى أـبنـاء شـعبـه أـسـيـادـا وـهـو وـاحـدـ مـنـهـمـ. وـمـنـ جـهـةـ ثـانـيـةـ، لمـ نـجـعـ يـعدـ في تـجمـيع عـنـاصـرـ النـظـامـ الـبـدـيلـ الـذـي يـسـتـمـدـ شـرـعيـتـهـ منـ إـرـادـةـ الشـعـبـ، وـالـتـي نـحـتـاجـ إـلـيـهاـ لإـعـادـةـ بنـاءـ سـفـينـةـ الـدـولـةـ السـوـرـيـةـ المـحـطـمـةـ وـالـغـارـقـةـ. وـكـمـاـ يـشـكـلـ هـذـاـ الفـرـاغـ الثـغـرـةـ الـتـيـ تـسـتـمـدـ مـنـهـاـ سـلـطـةـ الـأـنـتـدـابـ الـأـجـنـبـيـ قـوـتـهـاـ،ـ يـمـثـلـ بـالـنـسـبـةـ لـلـسـوـرـيـينـ حـالـةـ العـجـزـ بـمـاـ تـعـنـيـهـ مـنـ انـدـاعـ الـأـفـاقـ،ـ وـغـيـابـ الـفـرـصـ وـالـخـيـارـاتـ،ـ وـبـالـتـالـيـ التـخـبـطـ وـالـضـيـاعـ وـالـافـقـارـ لـلـقـدـرـةـ عـلـىـ التـوـجـهـ وـالـعـمـلـ الـمـشـترـكـ،ـ وـتـجـمـيعـ القـوـىـ وـتـوحـيدـ الـجـهـودـ.

منـ أـينـ يـمـكـنـ لـنـاـ أـنـ بـدـأـ الـعـمـلـ فـيـ هـذـاـ الـوـضـعـ الـبـائـسـ وـتـلـكـ الشـروـطـ الـجـائـرـةـ إـذـنـ؟

### (3)

الـجـوابـ:ـ مـنـ الـكـارـثـةـ ذاتـهاـ،ـ فـمـنـ رـحـمـ الثـورـةـ المـغـدـورـةـ،ـ وـمـنـ الدـمـارـ وـالـخـرـابـ وـالـمـوـتـ الـذـيـ قـادـتـ إـلـيـهـ حـربـ الإـبـادـةـ الـجـمـاعـيـةـ الـتـيـ نـظـمـهـاـ حـكـمـ جـائـرـ عـلـىـ شـعـبـ مـجـرـدـ مـنـ السـلاحـ،ـ وـمـفـتـرـ إـلـىـ أـيـ حـمـاـيـةـ سـيـاسـيـةـ أـوـ قـانـونـيـةـ،ـ خـرـجـ وـيـخـرـجـ كـلـ يـوـمـ مـنـ بـيـنـ أـنـقـاضـ دـوـلـةـ الـأـسـدـ الـمـنـهـارـةـ وـالـمـفـكـكـةـ وـالـمـحـتـلـةـ،ـ مـجـتمـعـ سـوـرـيـ جـدـيدـ مـسـتـقـلـ عـنـ الـمـجـتمـعـ الـعـبـودـيـ الـقـدـيمـ،ـ وـمـتـحـرـرـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ مـنـ قـيـودـهـ وـقـيـمهـ وـرـهـانـاتـهـ.ـ وـهـوـ لـاـ يـقـتـصـرـ عـلـىـ الـمـلـاـيـنـ الـذـيـنـ غـادـرـواـ سـوـرـيـةـ لـاجـئـينـ،ـ أـوـ نـازـحـيـنـ وـمـشـرـدـيـنـ،ـ وـلـكـنـهـ يـشـكـلـ الـعـدـيدـ مـنـ أـوـلـئـكـ الـأـفـرـادـ الـذـيـنـ خـابـ أـمـلـهـ بـالـنـظـامـ،ـ وـدـمـرـتـ أـسـسـ حـيـاتـهـ الـطـبـيـعـيـةـ،ـ فـيـ مـنـاطـقـ سـيـطـرـةـ النـظـامـ وـخـارـجـهـاـ،ـ فـقـدـ خـرـجـ هـؤـلـاءـ جـمـيـعـاـ مـنـ قـفـصـ الـعـبـودـيـ الـحـدـيـديـ الـذـيـ حـبـسـهـ فـيـ النـظـامـ،ـ وـمـنـ تـحـتـ سـلـطـةـ الـمـعـنـوـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ،ـ وـهـمـ يـنـتـشـرـوـنـ الـيـوـمـ فـيـ مـخـلـفـ بـقـاعـ الـأـرـضـ،ـ يـعـيـدـونـ بـنـاءـ وـعـيـهـ وـتـأـهـيلـهـ الـعـلـمـيـ وـالـمـهـنـيـ وـالـإـنـسـانـيـ،ـ فـيـ شـرـوطـ حـيـاةـ مـنـاقـشـةـ تـامـاـ لـلـتـيـ عـاـشـوـهـاـ فـيـ الـمـاضـيـ.

لـقـدـ اـنـتـهـىـ الـحـصـارـ الـذـيـ كـانـ يـفـرـضـهـ النـظـامـ عـلـىـ الشـعـبـ بـأـكـملـهـ،ـ لـيـمـنـعـ عـنـهـ النـورـ وـالـرـؤـيـةـ وـالـتـفـكـيرـ الـمـشـترـكـ وـالـتـواـصـلـ.ـ وـعـلـىـ الـهـوـامـشـ وـفـيـ الـمـغـتـرـيـاتـ وـدـاـخـلـ مـخـيـمـاتـ الـلـاجـئـيـنـ وـصـفـوفـ الـمـشـرـدـيـنـ وـالـمـنـكـوبـيـنـ،ـ وـفـيـ مـئـاتـ الـجـامـعـاتـ الـعـالـمـيـةـ الـتـيـ يـدـرـسـ فـيـهـ عـشـرـاتـ آـلـافـ الـطـلـبـةـ السـوـرـيـنـ فـيـ كـلـ الـاـخـتـصـاصـاتـ،ـ يـتـكـونـ مـجـتمـعـ سـوـرـيـ جـدـيدـ،ـ خـارـجـ عـنـ سـلـطـةـ النـظـامـ وـنـقـيـضـ لـهـاـ.ـ وـعـنـدـمـاـ تـكـلـمـ عـنـ مـجـتمـعـ،ـ فـنـحنـ نـعـنـ نـشـوـءـ الـمـؤـسـسـاتـ الـتـيـ حـرـمـ مـنـهـاـ السـوـرـيـوـنـ نـصـفـ قـرنـ،ـ مـنـ أـحـزـابـ وـنـقـابـاتـ وـجـمـعـيـاتـ مـدـنـيـةـ حـرـةـ عـلـىـ مـخـتـلـفـ أـشـكـالـهـاـ،ـ بـهـدـفـ أـنـ يـظـلـلـوـاـ أـفـرـادـاـ مـنـفـصـلـيـنـ وـمـتـعـارـدـيـنـ وـشـاكـيـنـ بـعـضـهـمـ بـبـعـضـ،ـ مـتـسـاوـيـنـ،ـ كـذـرـاتـ الرـمـلـ،ـ أـوـ كـجـسـدـ هـلـامـيـ مـنـ دـوـنـ عـمـودـ فـقـرـيـ يـمـكـنـهـمـ مـنـ الـوـقـوفـ وـالـسـيـرـ.ـ فـيـ عـالـمـهـمـ الـجـدـيدـ الـحـرـ،ـ يـعـيـدـ السـوـرـيـوـنـ تـوـاـصـلـهـمـ الـمـقـطـوـعـ فـيـ مـاـ بـيـنـهـمـ،ـ وـيـتـعـرـفـونـ عـلـىـ ذـاـتـهـمـ وـمـنـاقـبـهـمـ وـنـقـائـصـهـمـ أـيـضاـ،ـ وـيـطـوـرـوـنـ وـعـيـاـ أـكـثـرـ مـوـضـوعـيـةـ وـعـقـلـانـيـةـ بـوـجـودـهـمـ الـجـمـعـيـ،ـ وـيـعـرـفـونـ أـكـثـرـ فـأـكـثـرـ بـاـخـلـفـاتـهـمـ وـيـسـتوـعـبـونـهـاـ وـيـتـمـتـلـوـنـهـاـ،ـ بـلـ يـحـتفـونـ بـهـاـ،ـ وـيـعـيـدـونـ أـيـضاـ تـوـاـصـلـهـمـ الـذـيـ اـنـقـطـعـ مـعـ الـعـالـمـ،ـ وـيـكـتـشـفـونـ إـرـادـتـهـمـ الـحـرـةـ وـيـنـسـجـوـنـ عـلـاـقـاتـهـمـ الـمـدـنـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ الـتـيـ مـزـقـهـاـ الـاـسـتـبـداـدـ عـبـرـ آـلـافـ الـجـمـعـيـاتـ وـالـمـنـظـمـاتـ الـأـهـلـيـةـ وـالـسـيـاسـيـةـ وـالـإـنـسـانـيـةـ الـتـيـ تـخـضـعـ لـإـرـادـتـهـمـ،ـ وـيـطـوـرـوـنـ قـدـرـاتـهـمـ فـيـ الـبـحـثـ وـالـتـنـظـيمـ وـالـمـبـادـرـةـ وـالـعـلـاقـاتـ الـدـولـيـةـ.

لـمـ يـوـلدـ هـذـاـ الـمـجـتمـعـ بـإـرـادـةـ أـحـدـ،ـ وـلـكـنـهـ كـانـ نـتـيـجـةـ طـبـيـعـيـةـ وـعـفـوـيـةـ لـانـفـجـارـ الـدـولـةـ الـقـدـيمـةـ،ـ وـتـطاـبـيرـ أـشـلـائـهـاـ فـيـ كـلـ الـأـنـحـاءـ.ـ لـقـدـ وـلـدـ فـيـ الـكـارـثـةـ،ـ كـمـاـ وـلـدـ الـشـعـبـ الـفـلـسـطـيـنـيـ فـيـ النـكـبةـ.ـ وـهـوـ يـسـيـرـ حـتـمـاـ نـحوـ التـوـاـصـلـ وـالـتـلـاقـيـ وـتـجـمـيعـ الـقـوـىـ وـإـنـتـاجـ وـعـيـ مـوـحدـ وـمـسـتـقـلـ.ـ وـسـيـكـونـ قـسـمـ كـبـيرـ مـنـ جـاهـزاـ لـلـانـخـراـطـ فـيـ إـعـادـةـ بـنـاءـ وـطـنـهـ الـأـصـلـيـ وـالـدـائـمـ،ـ سـوـاءـ جـاءـ ذـلـكـ بـمـنـاسـبـةـ اـنـتـفـاضـةـ قـادـمـةـ،ـ أـوـ مـنـ خـلـالـ الضـغـطـ الـمـتـراـكـمـةـ وـالـمـسـتـمـرـةـ.

كـلـ مـاـ نـحـتـاجـ إـلـيـهـ الـيـوـمـ لـنـسـرـعـ فـيـ اـنـتـقـالـ آـثارـ هـذـهـ الـثـورـةـ الـحـقـيـقـيـةـ إـلـىـ دـاـخـلـ سـوـرـيـةـ الـقـدـيمـةـ وـالـمـتـفـسـخـةـ الـقـائـمـةـ،ـ وـعـلـىـ الرـغـمـ مـنـهـاـ،ـ أـنـ يـعـمـلـ مـنـ تـبـقـىـ عـلـىـ قـيـدـ الـحـيـاةـ الـسـيـاسـيـةـ وـالـفـكـرـيـةـ مـنـ قـوـىـ الـمـعـارـضـةـ الـتـقـلـيـدـيـةـ الـمـاضـيـةـ عـلـىـ تـنـشـيـطـ التـفـاعـلـ بـيـنـ

هذه القوى ومساعدتها على تعميق التواصل في ما بينها، وإنشاء الروابط التي تجمع بين الأفراد، على مستوى التجمعات المهنية والجمعيات الأهلية، وال المجالس المحلية، والمؤسسات السياسية والاجتماعية والثقافية. ووسائل ذلك تنظيم الحوارات واللقاءات والندوات التي تجمع السوريين، وربما تطوير نوع من البوصلة التي تعنى بالتوجهات الفكرية والسياسية، وتطلق عبر الإعلام الأفكار الجديدة والمبادرات وتعتمد نتائج التقدم في أي ميدان على الميادين الأخرى. ومن صلب هذا المجتمع الجديد، سوف يولد النظام البديل، بمؤسساته وأساليب عمله وتنظيماته الجديدة، وتطور قيم التعاون والتضامن المطلوبة للارتقاء بسلوك الأفراد ونوعية تطلعاتهم، وتنخلق قوى النظام الجديد.

على الرغم من الكارثة، المجتمع السوري اليوم أكثر قوة وغنى وتماسكا سياسيا مما كان عليه قبل الثورة وال الحرب، حيث لم يكن هناك سوى مؤسسة وحيدة حاكمة وموجهة ومنظمة وسيدة، هي أجهزة الأمن التي يديرها ويشرف عليها سيد مطلق الصلاحية، وكلى السلطة والانتشار. وهذه هي خد عالتاريخ، أو بالأحرى جديته، حيث لا تنفصل القوة عن الضعف، والعكس صحيح. واليوم، وسوريا شبه مدمرة، لا خطئ عندما نقول إن المجتمع السوري لم يعد يفتقر للقوى الحرة والحياة والنشاطة القادرة على التغيير. ولكنه يفتقر لهذه الروح الجامحة والمحركـة التي تخلق الأمل، وتبعـث الثقة، وتوحد الإرادة، وتشعل العزيمة، وتقضـي على روح الإحباط واليأس الذي يبعث النفور والتنفير المتبادل داخل صفوف قوى الثورة والمعارضة القديمة. ولن نعثر على هذه الروح التي تدفع إلى التعاون والتضامن، والعمل من أجل مشروع وطني مشترك، ما لم نوسع من دائرة اهتمامـنا، ونـقل محور اهتمامـنا من المعارضة المجهـضة، بمختلف تنويعاتها، إلى سوريا ذاتها ومصير السوريـين، ونـنظر في ما وراء التشكيلـات الاجتماعية والعصبيـات الحزـبية والـفـئـوية والـطـائـفـية المتـفـسـخـة إلى الأفراد المـولـودـين من جـديـدـ الذين تحرـروا من ثـقـافـةـ العـبـودـيـةـ، أي ثـقـافـةـ الأنـانـيـةـ، وـشـرـهـ السـلـطـةـ وـالـمـالـ، وـانـدـاعـ الشـعـورـ بـالـمـسـؤـلـيـةـ الجـمـاعـيـةـ.

ولن نتمكن من التغلب على روح الهزيمة والخوف والانحلال المجتمعي الذي يجسدـه مبدأ: انـجـ سـعـ فـقدـ هـلـكـ سـعـيدـ، إـلاـ بـنـاءـ ثـقـافـةـ التـضـامـنـ وـالـأـخـوـةـ التي قـامـتـ علىـ أـفـضـالـهـ الجـمهـوريـاتـ فيـ جـمـيعـ الـبـلـادـ الـدـيمـقـراـطـيـةـ، بـمـقـدـارـ ماـ أـسـسـتـ لـمـجـتمـعـ الحرـيةـ وـالـعـدـالـةـ وـالـمـساـواـةـ، وـعـمـقـتـ رـوـحـ التـعاـونـ وـالـتـفـاـهمـ بـيـنـ الأـفـرـادـ، وـجـعـلـتـ خـلاـصـ الفـردـ وـضـمـانـ حـقـوقـهـ وـحـرـيـاتـهـ مـرـتـبـطـينـ بـخـلاـصـ الـمـجـتمـعـ وـدـوـلـةـ الـحـرـيـةـ وـالـقـانـونـ. وـالـدـوـلـ وـالـأـقـالـيـمـ الـتـيـ لـاـ تـنـجـحـ فـيـ إـرـسـاءـ أـسـسـ التـضـامـنـ وـالـتـكـافـلـ الـجـمـاعـيـ تـضـعـفـ حـظـوظـهـ كـثـيرـاـ فـيـ بـنـاءـ أـسـسـ التـعاـونـ بـيـنـ الأـفـرـادـ وـالـمـجـتمـعـاتـ، وـتـفـقـدـ الـكـثـيرـ منـ فـرـصـهـ لـلـارـتـقاءـ بـشـروـطـ حـيـاةـ الـمـجـتمـعـاتـ، الـمـادـيـةـ وـالـمـعـنـوـيـةـ، وـرـبـماـ بـقـيـتـ فـرـيـسـةـ سـهـلـةـ لـلـحـرـوبـ وـالـنـزـاعـاتـ الـتـيـ لـاـ تـنـهـيـ، وـالـتـيـ لـاـ تـنـجـ غـيرـ الدـمارـ وـالـمـوـتـ وـالـخـرـابـ، كـمـاـ هـوـ حـالـنـاـ الـيـوـمـ فـيـ الـمـشـرـقـ الـحـزـينـ.

المصادر:

العربي الجديد